

دروس في

اصول الفقه

(الدرس الثامن)

تاريخ علم الاصول

قد عرفت أنّ كثيرا من القواعد المدوّنة في علم الاصول تستفاد من صميم أحاديث أئمتنا الكرام - عليهم السلام - كالروايات الدالة على حجّية خبر الثقة ، وعدم حجّية القياس و الاستحسان ، وحجّية أصالة البراءة و الإستصحاب ، وقواعد التعارض ، و أنّ النهي يقتضي الفساد ، و أمثالها. و جُلّ هذه المسائل رويت عن الإمام الباقر (ع) الذي ولد في عام 57 هـ. ق. و استشهد عام 114 ، و الإمام الصادق (ع) الذي وُلد عام 83 و استشهد عام 148 ، و إنّهما كانا يُمليان على أصحابهما هذه القواعد العامّة في أمر الاستنباط ، و كان تلامذتهما يكتبون تلك المسائل في ضمن أحاديثهم الشريفة. و قد اهتمّ بعض علمائنا القدماء و المعاصرين بجمع تلك القواعد المروية عنهما و تدوينها بحسب الترتيب في مباحث علم الاصول ؛ كالشيخ الحرّ العاملي في كتابه "الفصول المهمّة في اصول الأئمة"، و السيّد عبد الله الشبّر في كتابه "الاصول الأصليّة".

و لكن أول من ألف كتابا في اصول الفقه من أهل السنّة، هو يعقوب بن إبراهيم، المتوفى عام 182 هـ. ق. الذي ألف كتابه في اصول الفقه على أساس المذهب الحنفي ، كما حكي عن ابن خلّكان. ثمّ ألف محمّد بن الحسن الشيباني المتوفى عام 182 أو عام 189 هـ. ق. كتابا في اصول الفقه ، كما صرّح بذلك ابن النديم في الفهرست. ثمّ ألف محمّد بن إدريس الشافعي المتوفى عام 204 كتابه في هذا العلم.

و من هنا تعرف أنّه لا وجه لكلام السيّد السيستاني في كتابه "الرافد" ، من أنّ أول من ألف كتابا في اصول الفقه من أهل السنّة ، هو الشافعي.

دور علماء الشيعة في تطوير اصول الفقه

أول العلماء من الشيعة ، الذين صنّفوا كتبا مستقلة في هذا العلم من تلامذة أئمّتنا الكرام هو يونس بن عبد الرحمن (المتوفى عام 208) الذي ألف كتاب "اختلاف الحديث و مسائله" في باب التعادل و التراجيح من اصول الفقه ، كما حكاها النجاشي في رجاله.

و كذلك ابن أبي عمير (المتوفى عام 217) ، الذي كتب رسائل في باب العامّ و الخاصّ ، و الناسخ و المنسوخ.

ثمّ ألف اسماعيل بن علي النوبختي (المتوفى عام 311) كتاب "إبطال القياس" - كما حكاها ابن النديم - في الفهرست ، و كتاب

"الخصوص و العموم" - كما ذكره النجاشي في رجاله. و هكذا كتب الحسن بن موسى النويختي كتاب "خبر الواحد و العمل به".

ثم اهتمّ جمع من علمائنا الأقدمين بتأليف الكتب الجامعة ، التي تحتوي على جميع أبواب هذا العلم.

منهم الشيخ المفيد (المتوفى عام 413) الذي ألف كتاب "التذكرة باصول الفقه".

و منهم السيّد المرتضى (المتوفى عام 436) الذي كتب كتاب "الذريعة" في اصول الفقه.

و منهم الشيخ الطوسي (المتوفى عام 460) ، صاحب "العدّة في اصول الفقه".

و منهم حمزة بن علي بن زهرة الحلبي (المتوفى عام 558) ، مؤلّف كتاب "غنية النزوع إلى علمي الاصول و الفروع".

و منهم سديد الدين الحُمصي (المتوفى عام 600) و له كتاب "المنقذ من التقليد و المرشد إلى التوحيد".

و منهم المحقّق الحلّي (المتوفى عام 676) ؛ و له كتاب "المعارج في اصول الفقه".

و منهم العلامة الحسن بن يوسف الحلّي (المتوفى عام 726) الذي ألف عدّة كتب في هذا العلم ، و هي "تهذيب الوصول في علم الاصول" ، و "مبادئ الوصول إلى علم الاصول" ، و "نهاية الوصول إلى علم الاصول" ، و "النكت البديعة في تحرير الذريعة" ، و كتاب "غاية الوصول".

مدرسة الأخباريين

ظهرت المدرسة الأخبارية في مقابل المدرسة الاصولية في أواخر القرن العاشر الهجري ، و كان هذا الأمر بعد الفترة التي توقفت فيها عجلة الفكر الاصولي بعد عصر العلامة الحلّي و معاصريه ، (أي : من أواخر القرن الثامن إلى إوائل القرن الحادي عشر الهجري). و لانجد في هذه المرحلة تأليفا جامعا و إبداعا رائعا في علم الاصول من قبّل علمائنا الإمامية ، إلا القليل منهم ، كصاحب المعالم (المتوفى عام 1011 هـ).

حتّى أنّنا نرى أنّ الشهيد الثاني (المتوفى عام 966) يظهر من كلامه في كتاب القضاء من "شرح اللمعة الدمشقية" : أنه يكفي للفقهاء الجامع لشرائط الإفتاء أن يدرس مختصرات اصول الفقه ، مثل كتاب "مختصر ابن الحاجب" في المنطق والأصول. و هو كتاب ألفه أحد علماء السنّة و هو عثمان بن عمر ، المعروف بابن الحاجب المالكي ، المتوفى عام 646هـ.

يقول الشهيد الثاني :

"بل يشتمل كثير من مختصرات أصول الفقه كالتهذيب ومختصر الاصول لابن الحاجب على ما يحتاج إليه من شرائط الدليل المدون في علم الميزان". فتأمل.

مؤسس المدرسة الأخبارية

المعروف أنّ مؤسس الأخبارية هو الشيخ محمد أمين الأسترابادي (المتوفى عام 1033 هـ).

لكنّ الأخباريين يقولون بأنّ طريقتهم هي الطريقة الأصيلة لأصحاب الأئمة المعصومين - عليهم السلام - ، و غيرها الاصوليون ، و يتهمون ابن الجنيد (الذي كان يعيش في القرن الرابع الهجري) بأنّه أول من ترك الطريقة الأصليّة لأصحاب الأئمة و فتح باب علم الاصول و يتهمونه بأنّه كان يعمل بالقياس.

يقول الأسترابادي في كتابه "الفوائد المدنيّة" :

"أول من غفل عن طريقة أصحاب الأئمة (عليهم السلام) و اعتمد على فنّ الكلام و على اصول الفقه ، المبنين على الأفكار العقلية المتداولة بين العامة ، محمّد ابن أحمد ابن الجنيد ، العامل بالقياس، و حسن ابن علي ابن أبي عقيل العماني المتكلّم ؛ و لما أظهر الشيخ المفيد حسنَ الظنّ بتصانيفهما بين أصحابه ، منهم السيّد الأجلّ المرتضى و شيخ الطائفة ، شاعت طريقتهما بين متأخري أصحابنا ، حتّى وصلت النوبة إلى العلامة الحليّ ، فالتزم في تصانيفه أكثر القواعد الاصولية من العامة".

هذا هو ما ادّعه الأخباريون ، و لكنك عرفت من خلال المباحث السابقة أنّ امّهات القواعد الاصولية رويت عن أئمّتنا الكرام ، و أنّ أصحابهم و تلامذتهم ألّفوا الكتب الأوّليّة في هذا الفنّ.

و سنتطرّق إلى بيان معالم اخرى من مدرسة الأخباريين و نقدها في الدرس القادم ، انشاء الله.
